المصلح الشيخ عمار بن الأزعر
وجهوده في التحرير والتنوير بالديار السوفية

د/ الجباري عثماني/ كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية/ جامعة حمّة لخضر بالوادي

الملخص:

شهدت منطقة وادي سوف أواخر القرن 19م ومطلع القرن 20م، هجرة علمية لافتة لشخصيات سوفية من كثير القرى والحواضر نحو جامع الزيتونة المعمور بتونس، وقد رجع جلّهم مزودا بالعلوم الشرعية العقلية والنقلية، ومُشبعين بالفكر التحرري الإصلاحي ومتحررين من قيود قابلية الخضوع للشيخ وللضابط الحاكم. ومن زمرة أولئك البررة سطع نجم العالم عمار بن الأزعر، بحيث يتناول المقال بالدراسة النشاط الإصلاحي والتعليمي والتنويري لهذا العالم في النصف الأول من القرن العشرين؛ وما تكبّده من معاناة في سبيل ذلك.

Abstract:

In the late 19th century and the early 20th century, the Oued Souf region witnessed a scientific migration of Soufian characters from many villages and towns towards the El Zaytouna Mosque in Tunis. Most of them returned with the forensic and mental sciences, imbued with reformist liberal thought and freed from

the limits of subordination to the Sheikh and the ruling regime. From this group of righteousness, the star of the world, Ammar ibn al-Azar, was brightened. The article deals with the reform, education and enlightenment activity of this world in the first half of the twentieth century, and the suffering it suffered.

استهلال:

لقد كانت الهجرة العلمية لكثير من أعلام وادي سوف نحو البلاد التونسية، دافعا في التزود والنهل فضلا عن صنوف العلم، بالأفكار الإصلاحية التنويرية، بحيث انخرط بعضهم في أول وهلة من ظهور جمعية جامعة لجهود علماء وفقهاء الجزائر(جمعية العلماء). ورغم البيئة السوفية (الاستعمار- الأذناب المدجنين) الطاردة لمثل هذه الأفكار الإصلاحية آنذاك، أبى ثلة ممن حباهم الله صنعة فصل الخطاب، الذين آمنوا بأفكار جمعية العلماء ومبادئها، إلا نبذ البدع والخرافات وترسيخ في أفئدة الناشئة الإسلام الصحيح الخالي من الشوائب والزوائد؛ وذاك عن طريق النصيحة والموعظة الحسنة في المساجد وأماكن التجمعات، ومقاعد الدرس الكتائبية والعصرية.

ونحاول في هذه المقال، أن نسلط الضوء على دور أحد علماء ومثقفي وادي سوف الذي كرّس حياته لتنوير وتحرير الناشئة، بإيقاظ روح الانتماء الوطني في الأفئدة، والمساهمة في ترسيخ مقومات الهوية الوطنية الجزائرية، والاعتزاز بالوطن وحملهم على الدفاع عنه بالغالي والنفيس تلميحا وتصريحا. والمشار إليه هو الشيخ عمار بن الأزعر، الذي يُعدّ

من بواسق زعماء الإصلاح في إقليم وادي سوف، ومن السابقين لغيره في هذا الميدان، تحمل كل المشاق والمتاعب لأجل نشر أفكاره، رابط في قريته قمار معلما ومربيا ومصلحا، أول من لبى نداء العلماء عندما أشرقت شمس الجمعية في سماء الجزائر الأبية. وقبل الخوض في جهود مترجمنا الإصلاحية الأولى أن نتعرف عليه ولو بإيجاز مولدا ونسبا وتعلما، وقبل ذلك نلقي ومضة موجزة حول عصر المترجم له.

1- عصر عمار بن الأزعر:

جاء عمار بن الأزعر إلى الوجود والجزائر عامة وموطنه وادي سوف خاصة ترزح تحت نير الاستعمار الفرنسي، ناهيك عن الوضعية الاقتصادية المزرية لسكان سوف، نتج عن الاستعمار؛ انتشار العادات الفاسدة مثل: شرب الخمر، وأكل السحت، والغش والرشوة، كما بث المستدمر روح التفرقة، والصراعات بين السكان، بل بين القبيلة الواحدة، أو بالأحرى الأسرة الواحدة. كما عمل المستعمر على التقرب من رؤساء الطرق الصوفية، فنشر بينهم العداوة والبغضاء، حتى تتفرق كلمتهم، وتتمزق صفوفهم، وينشغلوا بأنفسهم؛ وكانت نتيجة هذه الأوضاع، أن انتشرت الأمية بين الأهالي، وتفشت روح العداوة بينهم، مما أدى بالشباب إلى انغماسهم في اللهو والمجون، وكان المستعمر يشجع هذا الانحطاط الخلقي وتغييب الوازع الديني[1]، حتى يأمن بوائق السكان.

وأما عن الوضع الاقتصادي، فقد شهد عمار الفتى لهين الحرب الكونية الأولى تلتهب وطال سعيرها مجتمع المنطقة، فاشتد غلاء الأسعار وعظُم الكرب[2]، وندرت البضائع الرئيسة في الأسواق، وكثر النهب والسطو على الأرزاق، وسخّر المستعمر مقدرات الشعب الجزائري لخدمته وحلفائه، فزادت الحياة ضنكا عن ضنك، فكثرت

الهجرة بأنواعها(العلمية، المعاشية، الصحية، السياسية..) في مجتمع سوف، بحثا عن الأمنين من جهة، وإيجاد البيئة العلمية الحاضنة للتزود بالعلم من جهة ثانية. ونظرا للقرب الجغرافي الذي كانت تمتاز به تونس فقد توجه السوافة إلى إليها، وشكلوا هناك الجالية الأكثر تعدادا عن باقي الجاليات الجزائرية[3].

ونظرا لتضييق المستعمر على التعليم العربي الإسلامي، وتهرب الأهالي من تعليم أبنائهم في المدارس الرسمية الفرنسية، بحيث كانوا يعتبرون تعليمها يؤدي إلى التشكيك في العقيدة الإسلامية؛ لذلك كانوا يفضلون إرسال فلذات أكبادهم إلى تونس من أجل التعلم سواء في زوايا الجنوب كزاوية سي إبراهيم بنفطة أو فروع جامع الزيتونة بالمنطقة، كما شهد هذا الأخير في النصف الأول من القرن العشرين توافد كثير من الطلبة السوافة للدراسة ونهل العلم من أعلامه وعلمائه. ولعل رحلة ابن باديس التاريخية في اتجاه جامع الزيتونة سنة 1908م من طليعة الرحلات في مطلع القرن 20م، وكانت هاته الرحلة هي الجسر الذي عبرت عليه جل البعثات التي تتابعت بعد هذا التاريخ[4].

وقد أخذ طلبة العلم العائدين من جامع الزيتونة على عاتقهم نشر العلم والوعي، والحفاظ على الهوية الوطنية الجزائرية، وكما كان لهم الدور البارز أيضا في إنهاض الهمم للعديد من الشباب؛ من أجل الذهاب إلى الزيتونة والحصول على الشهادات العلمية وتحصيل العلم النافع، وعلى العموم، فقد كان الطلبة السوافة يمتازون بمؤهلات عقلية كبيرة، وتميزوا بالنباهة والاجتهاد والمثابرة في العمل، وهذا ما سمح لهم بالحصول على الشهادات التي أهلتهم إلى تبوء المناصب في المدارس[5]. وفي تلك الأجواء المليئة باليأس والمضطربة بطول الظلام الدامس، عاش مترجمنا، والذي توقت نفسه كبعض أقرانه للسفر

إلى جامع الزيتونة في رحلة علمية؛ ليعود منه مدرسا ومرشدا ومصلحا، كما سنرى في الفقرات الآتية.

2- مولده ونسبه وتعلمه:

هو عمار بن الحاج عبد الله بن الحاج الطاهر بن أحمد بن محمد الهلالي القماري السُوفي، يقول في ترجمة لنفسه: "وُلدت في بلدة قمار في عام 1316هـ/1898م، ونشأت في عائلة فقيرة إلا من الإيمان بالله[6]. كان عمار قد ابتدأ قراءته في بلدة قمار، فقرأ بعضا من القرآن في سن مبكرة من حياته، ثم انتقل مع والدة إلى الزيبان وتحديدا بلدة "فلياش"[7]؛ وفيها أكمل حفظ شطرا من القرآن، وأتم حفظه ببلدة سيدي عقبة بجنوب الجزائر، ثم رجع إلى مسقط رأسه، ومن ثم التحق بزاوية سيدي المولدي بتوزر ذات النظام التدريسي الداخلي، يقصدها الفقراء وأبناء تلك الجهات لتلقي حفظ القرآن وبعض المتون، بحيث أكمل الفتى عمار حفظ كتاب الله وهو ابن العاشرة من العمر[8].

لم يجد الفتى ما كان يصبو إليه في طلب العلم ببلدته، فاستعان بالله ورحل إلى تونس مشيا على الأقدام بصحبة والده، وقد تكبّد مصاعب كثيرة عظيمة يهون أمرها على من طارت به الأشواق في طلب العلم والاكتراع من معينه الزلال، ودخل توا جامع الزيتونة، وانخرط في سلك التعلم وذلك في سنة 1334هـ"[9]. بمعنى أن عمره آنذاك كان حوالي 18 سنة عند رحيله؛ وهي الفترة التي اشتد فيها عوده وتوقت نفسه للعلم والمعرفة.

وقد درس في الزيتونة المعمور على أشهر علمائها، ومنهم: الشيخ الصادق النيفر الملقب بسفينة الفقه، الشيخ أبو الحسن النجار، الشيخ الزغواني، الشيخ عثمان ابن المكي التوزري، الشيخ الطاهر بن عاشور، الشيخ عبد العزيز جعيط، الشيخ محمد بن القاضي،

الشيخ محمد الجدمي البنزرتي، وعلى غيرهم أيضا، وتابع دراسته بذلك مدة تسع سنوات إلى أن تخرج بشهادة التطويع المعادلة لشهادة العالمية يومئذ، وذلك سنة 1343هـ/1924م[10]. وفي هذه السنة اجتمعت نخبة من أهل قمار، واتفقوا على تأجير مدرّس يقيم عندهم في البلدة؛ لتثقيفهم وتعليم أبنائهم، وكان الشيخ عمار بتونس، فاتفقت كلمتهم على أن يبعثوا إليه ليأتيهم إلى قمار؛ فلبى نداءهم وامتثل لذلك[11].

3- الشيخ عمار مدرّسا ومصلحا:

رجع الشيخ إلى بلدته قمار في سنة 1924هـ، وهي الفترة التي واكبت حركة إصلاحية للعلماء في الجزائر، بحيث أن عقد العشرينيات كان مرحلة تخمر فكرة الإصلاح منذ أن وضعت الحرب العالمية أوزارها[12]. وقد شهدت هذه الفترة من القرن الماضي حركة علمية في حواضر سوف الأساسية(الوادي، قمار الزقم)، بعد عودة طلبة العلم من جامع الزيتونة، وهي عناصر متشبعة بالفكر الإصلاحي، والروح العلمية الصادقة، فظهر بمدينة الوادي الشيخ العوامر والعبيدي، وفي الزقم معمري عبد الرحمان، ومحمد الساسي معامير، وفي قمار الشيخ السايح اللقاني[13] ومترجمنا الشيخ عمار، وقد انتصب الأخير معلما ومثقفا ومفتيا ومصلحا وقائدا للحركة العلمية بقمار، وأخذ يلقي دروسا بمسجد السوق العتيق، ويعمل على تغيير المعتقدات التي كانت موجودة بالحكمة، من ذبح ونذر وتقديس، وقد ركّز جهوده على فهم التوحيد السلفي والتعريف بمعنى "لا اله إلا الله، وأن محمدا رسول الله"، ودراسة الفقه الإسلامي والتاريخ، وعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وعروض وشعر، وأصبح يؤمّ حلقته جمع غفير من الكبار والصغار، وبدأ الوعي الديني ينتشر في بلدته قمار وحتى جوارها[14].

وتوطدت علاقة الشيخ في البداية بأهل البلدة، وأخذ حبّه يعمّ النفوس، وكان يحضر دروسه الدينية واللغوية أبناء القرية بمن فيهم أبناء الزاوية التجانية، حيث تعامل باللين والحكمة، وفي قوله يكتفي في إرشاده بالتلويح عن التصريح، وبالإشارة عن العبارة[15]. وقد كتبت جريدة النجاح القسنطينية سنة 1927م عن واقع الحركة العلمية بقمار ودور الشيخ عمار الإصلاحي، حيث جاء فيها: "وفي مدة ثلاثة أعوام مضت منَّ اللهُ على هذه البلدة، بالفقيه النَّبيه العالم العلامة السيِد عمار بن الأزعر المتطوع بالزيتونة، فبثّ علمه في البلدة فجزاه الله عنَّا كل خير، والأهالي فرحون مستبشرون مسرورون بهذا البدر الطَّالع الذي أضاء على "قمار" ونواحيها، وقد اتَّفقت أهالي البلدة على مبلغ 307 فرنكا يجازونه بها في كل سنة، فأنجزوا ذلك في السنة الأولى والثانية وتأخروا بعد ذلك، مع أنَّ سكان البلدة 7500 نسمة، وكثيرهم أغنياء وتجار ولا يعلمون أن شرف نفوسهم وشرف أبنائهم العلم، وبالعلم سادت الأمم"[16]. وكما قاوم الشيخ عمار الانحراف الديني، فإنه عمل على إحباط مخططات الاستعمار الفرنسي، إذ لم يخضع لأحكامهم الجائرة وغاياتهم السيّئة في نشر الفساد، وأخذ الشيخ في نشر دعوته سرا لمقاومة الاستعمار بين أتباعه، الذين استجابوا لدعوته واتبعوه ونصروه.

4- الشيخ عمار بين عضوية الجمعية واضطهاد الخصوم:

وفي بداية عقد الثلاثينيات من القرن الماضي، راودت علماء الجزائر فكرة تأسيس رابطة جامعة تتبنى إصلاح ما أفسده المستعمر والمتخلفين والخرافيين من بعض الطرقية. ولهذا الغرض وُجهت الدعوة لجميع العلماء والمتصوفة حتى؛ لحضور الاجتماع التأسيسي لجمعية العلماء في 1931/5/5م بنادي الترقي بالعاصمة، ومنهم علماء وادي سوف،

ومن المدعوّين نجد: الشيخ إبراهيم بن عامر والشيخ الطاهر العبيدي، وأخوه أحمد العبيدي والشيخ ميداني موساوي؛ والسبب هو توليهم وظائف في الإمامة أو القضاء، فضلا عن اعتبارات فكرية وآراء خاصة، أقعدتهم عن التحرك لمثل هذا المنتدى[17].

ولم يحضر سوى محمد الأمين العمودي وحمزة بوكوشة من السوافة المقيمين خارج الوادي آنذاك، ومترجمنا الشيخ عمار بن الأزعر من قمار، فهو الوحيد من الشيوخ السوافة المستقرين بالمنطقة الذي أجاب داعي الدعاة، من الذين وُجهت لهم الدعوة سنة 1931م؛ لحضور الاجتماع العام الذي انعقد في نادي الترقي بالعاصمة، وهو الاجتماع الذي انبثقت عنه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[18]. حيث يقول عن نفسه في هذا الشأن: "ثم عدت لابتداء صفحة جديدة من الجهاد المقدس؛ في نشر عقيدة السلف والدعوة إلى الرجوع إلى كتاب الله والسنة، ومحاربة البدعة والضلالة، وكُنت أحد المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين، ورئيسا لشعبتها في جنوب الجزائر"[19].

ولم يمض عام عن تأسيس الجمعية، حتى أضحت بلدة قمار تشهد حركة علمية لتعليم الشبان والشّيب، أخذ أعداء العلم يتصدون لهذه الصحوة المباركة، والقضاء عليها في مهدها خوفًا من شروق شمس الحقيقة فتكشف ستارهم، وقد استعانوا بسلطة الحكومة في إخفائها. ويذكر الشيخ حمزة بوكوشة في "رحلته بين الرمال والتلال"، أن، قطب الحركة الإصلاحية بقمار هو الأستاذ عمار الأزعر الذي أوذي في الله[20]. ولم يعبأ الشيخ بذلك وواصل في تلقين النشء وتكوينهم وتثقيفهم، فقد روى أحد طلبته النجباء الشيخ، "الطاهر التليلي"، إحدى فصول يوميات الطلبة مع الشيخ لزعر، فيقول: ومن عادته المباركة التي لازمها وألزم تلامذته بها، اجتماعنا لكل ليلة جمعة في داره للمساجلات

الأدبية والمحاورات العلمية، والقصائد النبوية، ويتحتم على الجميع في تلك الأثناء التكلم بالعربي، ومن تلفظ بكلمة فرنسية يعاقب بخطيّة مالية تناسب قدر الجميع مقررة معلومة. ويضيف التليلي، وأما الكتب التي درسناها عليه في مجالساته العلمية، فمنها مختصر خليل وصحيح البخاري وكفالة الطالب، والأجرومية والقطر ومقدمة الإعراب، والرحبية في الفرائض، وجواهر الأدب لأحمد الهاشمي والورقات وشرح الهمزية لابن حجر وشرح جمل الإعراب والأربعين النووية وغيرها كثير[21].

وبجهود الشيخ عمار التنويرية؛ أخرج جيلا من المصلحين علّمهم بعد أمية وجهالة؛ إذ بذلك أنقذ مجموعة كبيرة من غياهب الجهل والتخلف. وهو ما يُجمع عليه العديد من أهل قمار الذين تتبعوا الحركة الإصلاحية بها، أن الفضل في قيام هذه النهضة يرجع لله ثم إلى الشيخ عمار بن لزعر؛ بفضل جهوده الطيبة التي أثمرت، وغراسه التي أينعت. يعترف له كبار السن بذلك حتى اليوم، وينوهون بمناقبه، وبمقاومته الثقافية للمستعمر الفرنسي، يذكر تلميذ الشيخ التليلي، بأنه هو الذي نفخ فيه من روحه الإصلاحية؛ التي أهلته لأن يكون خليفة له بعد هجرته الاضطرارية[22].

وفي المقابل ينشط تيار المعاكسة المدعوم من المستعمر، لكل محاولات نشر الفكر الإصلاحي في أوساط الأهالي، فكل من اشتم فيه رائحة الدعوة أو التعاطف أو الاتصال بجمعية العلماء أو أحد أعضائها؛ كان مصيره النفي والإبعاد، ولله درّ الشيخ لزعر الذي وجد هو الآخر نصبا من أعداء الإصلاح في بلدته، وبدأت أتعابه مع الزاوية التجانية سيما أولاد الشيخ العروسي بقمار والشيخ العيد بتاغزوت، بحيث أصبحت لا ترضهم سيرته في دروسه الإصلاحية؛ فوقعت بينه وبين أهل الزاوية وأتباعهم نفرة ثم مباعدة ثم

عداوة؛ أدت إلى انقسام أهل البلدة إلى حزبين، حزب الإصلاح وأكثر أهله من أتباع الطريقة الرحمانية والطريقة القادرية، وحزب الطرقية أكثر أتباعه من التجانية[23]. وعدّ الشيخ وأعتبر أن بعضا من الطرق التقليدية أنصار المستعمر، من بين الأسباب الرئيسة في تكريس التخلف بالمنطقة، كما كانت بينه وبين محمد بن البريّة القماري[24] مشاحنات، حيث كان الأخير مدافعا عن الطرق الصوفية، وهذا من خلال ما كتبه هذا الأخير من مقالات في الجرائد، كجريدة البلاغ الجزائري، وجريدة النجاح معاديا الشيخ عمار[25].

ولهذا كثرت الوشايات والافتراءات على الشيخ لدى السلطات الفرنسية، من خصومه أعداء الإصلاح، ناهيك عن المتاعب والحوادث التي وقعت له ولعائلته الخاصة، جراء تحريض المناوئين، فوصل ببغيهم بأن المار منهم بقرب منزله يرمي الحجارة وسط فنائه؛ مما أدى إلى إيذائه، وكانت زوجته وأولاده لا يخرجون إلى وسط الفناء إلا للضرورة، ويمشون تحت الحائط من غرفة لأخرى خوفًا من الأذى، وفضلاً عن ذلك كانت تتحطم لهم الأواني التي يملؤون فيها الماء، وكان رحمه الله في كل يوم يخرج في حجره الحجارة التي كانوا يرمونها في منزله، ولم يكتفوا بذلك فأطلقوا عليه أذنابهم وشعراءهم يشنونه[26] ويعيّرونه ومن هؤلاء الشاعرة بنت حورية زوجة ولد خشخوش، ومما قالته في "الحضرة" إساءة للشيخ عمار[27]:

على لقرع التقدود القاري على ليهود
والله لضاربيه
راه جاء واحد من تونس قاري على الطالبيه
والالفرنسويه

ونتيجة السعايات المغرضة والحاقدة عليه لدى المستعمر، على أنه يحرض الناس على فرنسا، حتى تدخلت الأخيرة لفائدة مناوئيه، وتم استدعاء الشيخ في إحدى المرات من طرف القائد الفرنسي بالوادي، فذهب إليه، وقد استقبله القائد بكل عجرفة، وقال له: لقد بلغني أنك تسبُّ نظام الحكم في فرنسا وتحرض الناس عليها، وبعد المحاورة، صدر قرار فوري بمنع الشيخ من الوعظ والإرشاد والدروس وحلقات الذكر في المسجد، وتم تهديده إن هو خالف ذلك؛ فإنه سيبعث به إلى سجن برج فطيمة، وهم سجن المعتقلين السياسيين قرب حاسي مسعود بالصحراء، ولما خرج الشيخ من مكتب القائد، كانت عيون الأعداء له خارج المكتب، فسأله صديقه: ماذا قال لك الضابط؟ فقال: اذهب ودرِّس لا يمنعك أحد، فبدت الخيبة على وجوه المناوئين، ودرّس يومها بعد صلاة المغرب بالمسجد العتيق، وهذه الحادثة تدل على فطنة الشيخ وذكائه، وسرعة بديهته[28].

ويبدو أن هذا التعنت من الشيخ قد جلب له المصاعب مع السلطات الفرنسية، وكادت أن تزجّ به في السجن، لولا أن الله سلّم، وقيّض له رجالا من قمار والوادي من الرسميين الحكوميين دافعوا عنه، أمثال: القاضي الصادق حوحو، والقايد أحمد بن الهلالي وابنه الأخضر، وآغة الوادي عبد العزيز مصرلي، والترجمان السيد البشير بن محمود بالوادي، وبعض الأعيان والوجهاء مثل: السيد أحمد بن عثمان، والسيد عبد الرحمن بن علي بن فطوم وغير هؤلاء كثير ممن قيّضهم الله للدفاع عن هذا العالم المفترى عليه[29].

ورغم المصائد والمكائد، مكث الشيخ عمار مكافحا ومحاربا للبدع والضلالات الموجودة بقمار بل بسوف عامة، سواء منها الأخلاقية أو الخرافية مدة إحدى عشر سنة من سنة 1924 إلى 1937م، قاوم فيها السفور الذي كان منتشرا في قمار بأتم معناه،

إذ كان ينهى نساء البلدة بالخروج من بيوتهن متبرجات، ويحثُّ على تفادي الاختلاط بشبان القرية ومغازلة فتياتها، لاسيما أيام الأعياد والاحتفالات العامة، ولقي في سبيلها مصادمات عنيفة من صوفية العصر؛ إذ قاوم شيخ الزاوية التجانية بقمار هذه الظاهرة مقاومة عنيفة بكل وسائله الخاصة[30]. كل ذلك لم يثني الشيخ عن عزمه في محاربة الجهالة والتخلف، والحث على العمل بالسنة المطهرة، وقد أفلح في حمل لواء الجهاد العلمي والإصلاحي بقمار وأحوازها، وتخرّج على يده أعلاما بارزة من الإصلاحيين المتنورين، وكان لحركته أيضا تأثيرا في جميع المجالات العلمية منها والسياسية والاجتماعية[31].

5- الشيخ عمار مهاجرا ومدرسا بالمدينة المنورة:

ودّع الشيخ عمار مسقط رأسه لزيارة البقاع المقدسة في العام 1352هـ؛ لأداء فريضة الحج، وبعد أداء المناسك رجع إلى بلدته، ولم يتغير حاله، وأحسّ فيها بضنك العيش؛ حيث أكد البعض أن الحاكم العسكري بالوادي قرّر نفيه، بإيعاز من ثمايد قمار وأتباع بعض الطرقية؛ لهذا أخذ الشيخ قراره بأن لا بقاء في هذا الوسط الجاحد، ولابد من الهجرة؛ وذلك خوفا على أهله وذريته من الفتن، حيث هاجر الشيخ في العام 1353هـ الموافق لسنة 1937م[32] مع جمع من أتباعه ومريديه من المستضعفين إلى البلاد المقدسة، كان خروجه من بلاده بمشهد غفير عظيم اجتمع فيه كثير من الناس، فمنهم الفَرِح بخروجه، ومنهم الباكى، ولما كان وقت رحيله صعد له بعض أعدائه إلى السيارة وطلبوا من المسامحة وناشدوه القرابة والرحم، فقال لهم: لقد أخرجتمونا وقاومتمونا، الله بيننا وبينكم، نعم الولى ونعم الوكيل، ولم يسلم مناصروه وتلامذته من بعده، فقد سُلّط الأذى عليهم، وعلى وحاملي فكرته ومؤيدي دعوته[33].

خرج الشيخ عمار فارا بدينة إلى سعة الله وملكوته، ولسان حاله لولا ظلم أهلك يا سوف لما خرجت من موطن الفؤاد ومرقد الأجداد. ولم يغادر قمار حتى ترك فيها طابعه الإصلاحي، وترك في قلوب أهلها محبته وإجلاله وتعظيمه وإكباره، وكان من آثاره المادية الملموسة إشارته لتجديد الجامع الكبير جامع السوق، والذي كان يسمى قبل التجديد بجامع الطلبة، الذي استغرق إعادة تشييده عدة سنوات حتى سنة 1930م، وكذلك بناء مدرسة النجاح التي تأسست سنة 1931م[34].

استقر بالشيخ المقام في مدينة رسول الله صلى الله وعليه وسلم، حيث استقبله العلماء ورحبوا به، وعلموا بما عنده من علم؛ فبدأ يعطي دروسه حتى اشتهر وذاع صيته، فرشحوه مدرسا بشكل رسمي بتاريخ غرة محرم من سنة 1366هـ الموافق لـ 1946/1/25م، وعقد للعلم وأهله سوقا نافعا، فالتف حوله طلاب العلم من المدينة المنورة ومن المهاجرين إليها. وأفاد وبلغ المقاصد بعلمه، ودرّس بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يقارب عشرين عاما، حيث درّس الحديث وعلوم القرآن، وكذا الله العربية، فأصبح من العلماء المبرزين في الحرم المدني، الذين تضرب من أجلهم أكباد الإبل وآباط المطي؛ للإفادة من علمهم وتقواهم.

ورغم انشغاله بالدرس والتعليم، لم ينقطع اهتمامه ومتابعاته عن أحوال وطنه المغتصب، وهذا بمجالسة الوافدين إلى البقاع المقدسة من أجل الحج والعمرة من الجزائريين عامة والسوافة والقمارية خاصة، يستقبل العلماء للاطلاع على أحوال البلاد، فحبُّه لوطنه بقي راسخا في فؤاده لم ينفصم قيد أنمله، بحيث كان عامة الناس من بلدته وغيرها زوار الحرم المدني، يجلسون إليه مستفتين في أمور دينهم ودنياهم.

وقد سجّل القماري الشيخ الحبيب حنيش[35] في رحلته إلى الحج سنة 1955م، حرص الشيخ لزعر على رعاية القادمين من البلد سواء في مكة أو المدينة، ويذكر، أن الشيخ أتى لهم يوم الخميس من شهر جويلية للانضمام للحجاج من أهل بلدنا المقيمين بالحجاز والبقاء مع المطوف، وجاء بعمال ليحملوا أثاثنا إلى دار أخ لنا في الله بمجول غربي مكة المكرمة للمكوث بها. وكان الشيخ يجلس للدرس والإفتاء يبصر الناس إلى العقيدة الصحيحة ونبذ الشرك والظلال ويجيب عن أسئلتهم الفقهية[36]، وقد سأله حاج من قمار يدعى علي كرام معنى قوله عز وجل: ﴿وقيل أدعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾[37]، فاسترسل في الكلام عن الشرك وأدرج الوسيلة والاستغاثة والنذر والنسك بنية التقرب إلى الله.

وسأله آخر من إفريقيا الغربية وفي رقبته سبحة تشير إلى طريقته، عن الطرق والانضمام إليها، فأجابه الشيخ، اعلم يا أخي أن الخلفاء الراشدين والتابعين والأيمة المجتهدين وعلى رأسهم النبي صلى الله وعليه وسلم، ما ورد عليهم أنهم اتخذوا طريقة وأخبروا بها، وعليه فأنصحك ألا تتخذ ذلك وتعتقد، وأما الذكر فاذكر ربك في كل حين بسبحة وغيرها، ولا تقيّد نفسك بعدد ولا وقت؛ لأنك مأمور بالذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وبالقرآن والحديث، والطريق واحد وهو ما كان عليه صلى الله عليه وسلم. وهكذا ظل الشيء منافحا عن السنة المطهرة داعيا إلى الإصلاح إلى أن لقيَ ربّه، في 28 جمادى الأولى 1389هـ/11 أغسطس 1969م[38] ودفن بالمدينة المنورة، رحمة الله عليه.

خاتمة:

ومما سبق ذكره، نلحظ، أن شيخ الإصلاح في سوف الذين تناولنا سيَرته وجهوده في عمل الخير وخير العمل، عاصر كغيره من دعاة التنوير بيئة سياسية واجتماعية قاسية حيث يخيّم عليها شبح الفقر والعوز وليل الاستعمار المظلم، تكبد عمار بن لزعر الفتى عناء من أجل التحصيل العلمي الذي ينشده كل متعلم آنذاك رغم الفاقة، وبعد التزود بالنور وكشف ستائر العلم عليه، رجع لوطنه مُكللا بالعلم وبأفكار الإصلاح والتنوير، ينشد إضاءة شموع الحق وتبصير الحيارى في غياهب ظلام الاستعمار وغيّ أعوانه من المتصوفة المزيفين.

ثنى الرَّكب إلى جانب تلاميذه يعلمهم بما جاد الله عليهم من علوم ومعارف، حارب المنكرات والموبقات، حذّر من مناصرة المستعمر المغتصب، وقاوم فكرة خلوده وعدم القدرة على دحره التي تخمّرت في أذهان العامة؛ ونال من جراء سعيه هذا الغضب والإبعاد من الكاثوليكي الجبّار، والخاضع الخانع من بني الجلدة الذي يحمل الجحود والإنكار، فتم التضييق عليه وغيره من منارات الإصلاح بالمنطقة، بكل صنوف الشيطنة والإكبار، فالسجن تارة والنفي القسري خارج الديار تارة أخرى، ولكنهم صبروا واحتسبوا ضريبة الدعوة إلى الحق والإصلاح، فلم يبدلوا ولم يغيروا.

الهوامش:

1- عاشور قمعون، **الشيخان**، مطبعة مزوار، الوادي 2010م، ص ص. 14-18.

2- الجباري عثماني، **الحياة الاجتماعية والاقتصادية في وادي سوف بين عامي 1854-1918م من خلال سجلات المحاكم الشرعية**، أطروحة دكتوراه علوم في التاريخ، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2017/2016م، ص. 238.

3- حسان الجيلاني، **قصة العودة**، ج. 1، دار هومه، الجزائر 2011م، ص. 31.

4- محمد الصالح الجابري، **النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962م**، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983م، ص 34.

5- عبد القادر عزام عوادي، **هجرة سكان وادي سوف إلى تونس خلال 1912-1962م**، دار الألمعية للنشر والتوزيع، قسنطينة 2014م، ص ص. 123-124.

6- يذكر الشيخ التليلي أنه وُلد قبل ذلك بعامين، أي، في سنة 1314هـ. ينظر: الطاهر التليلي، **من تاريخ وادي سوف**، مخ. لدينا نسخة منه، ص. 86.

7- إحدى قرى مدينة بسكرة، وتقع جنوب شرقها بـ 5كم.

8- التجاني العقون، **أعلام من قمار بوادي سوف**، مطبعة سخري، الوادي 2013م، ص. 279.

9- محمد سعيد دفتر دار، "من أعلام المدينة المنورة، صاحب الفضيلة المحدث السلفي الشيخ عمار بن عبد الله الجزائري.."، **مجلة المنهل السعودية**، مج. 3، س. 35، شعبان 1389هـ/أكتوبر-نوفمبر 1969م، ص ص. 4-11.

10- المرجع نفسه.

11- الطاهر التليلي، **من تاريخ وادي سوف**، ص. 86.

12- موسى بن موسى، **الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها 1900-1939م**، شهادة ماجستير في التاريخ، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006/2005م. ص ص. 162-164.

13- الشيخ محمد اللقاني بن السايح: هو أحد علماء الزيتونة، وأصل عائلته من الطيبات القبلية بين سوف ووادي ريغ، ولد سنة 1313هـ بنفطة من جريد تونس، قرأ القرآن ومبادئ العلوم بالطيبات بلد أبيه وبنفطة على شيوخ أبيه، ثم انتقل إلى جامع الزيتونة سنة 1334هـ؛ فتحصل على شهادة

التطويع سنة 1338هـ، ثم عاد إلى وطنه مدرسا ومعلما للأولاد اللغة والدين بالزاوية التجانية بتماسين وقمار، وقد استفاد منه أهالي البلدين وبقي كذلك إلى أن أزمع الرجوع إلى تونس نهائيا بعدما ضُيّق عليه من الاستعمار وأذنابه سنة 1925م، واستوطن العاصمة وانخرط في سلك المدرسين بجامع الزيتونة. وللشيخ مجموعة هامة من الشعر الجزائري الذي أنشأه لتلامذته في تماسين وقمار وغيرهما يوم كان في الجزائر، وله مجموعة من أخرى من الشعر التونسي، وقد باشر خطة العدالة وخطة الأمانة بجامع الحلفوين بالجديد بتونس، وبقي كذلك مدرسا وعدلا إلى أن انتقل إلى عفو ربه سنة 1868م. الطاهر التليلي، **من تاريخ وادي سوف**، ص. 101.

14- سمير سمراد، "أعلام منسيّة، الشيخ عمار بن الأزعر القماري السوفي"، **مجلة الإصلاح**، تصدر عن دار الفضيلة للنشر، الجزائر، س. 2، ع. 7، محرم/صفر 1429هـ الموافق لـ جانفي/فيفري 2008م، ص. 60؛ بشر خلف، **مرايا**، مطبعة مزوار، الوادي 2012م، ص. 126.

15- الطاهر التليلي، **من تاريخ وادي سوف**، ص. 86.

16- ميدة علي بن عمار، "من تبسة إلى قمار"، **جريدة النجاح**، ع. 506، الصادر بتاريخ، 22 ربيع الثاني 1346هـ/19 أكتوبر 1927م، ص. 2. نقلا عن: سمير سمراد، المرجع السابق، ص. 61.

17- علي غنابزية، **مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية**(1300-1374هـ/1882- 1954م)، أطروحة دكتوراة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2009/2008م. ص ص. 64-65.

18- أبو القاسم سعد الله، **تجارب في الأدب والرحلة**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983م، ص. 102.

19- محمد سعيد دفتر دار، المرجع السابق، ص ص. 5-11.

20- محمد الصالح الجابري، **خمس رحلات إلى الجزائر** 1904-1932م، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي 2004م، ص. 121.

21- الطاهر التليلي، **من تاريخ وادي سوف**، ص. 86.

22- بشير خلف، المرجع السابق، ص. 129-130.

23- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

24- هو الشيخ الأديب محمد بن بالقاسم الزبيري، المعروف بسي محمد بن البرية نسبة لوالدته، ولد سنة 1296هـ/1874م، حفظ القرآن ببلدته قمار، وأخذ العلم عن شيوخها والوافدين إليها من العلماء، ولم يرحل لطلب العلم، وبعد مرحلة التحصيل مارس الشيخ مهنة التعليم مؤدبا بالزاوية التجانية بقمار، وتماسين بتعيين من الإدارة الفرنسية، وبحكم اتصاله وتبعيته للزاوية التجانية وإدارة المستعمر؛ انخفض مستوى عطائه العلمي بل راح يدافع عن الطريقة في الظاهر، توفي رحمه الله سنة 1947م. ينظر: الطاهر التليلي، **من تاريخ وادي سوف**، ص ص. 77-78؛ التجاني العقون، المرجع السابق، ص ص. 310-313.

25- نفسه، ص. 77؛ نو الدين أبو لحية، **جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية وتاريخ العلاقة بينهما**، دار علي بن زيد للطباعة والنشر، بسكرة 2015م، ص ص. 135-136.

26- سمير سمراد، المرجع السابق، ص. 64.

27- بشر خلف، المرجع السابق، ص. 127.

28- التجاني العقون، المرجع السابق، ص. 281؛ بشير خلف، المرجع السابق، ص. 127.

29- الطاهر التليلي، **من تاريخ وادي سوف**، ص. 87.

30- المرجع نفسه الصفحة نفسها؛ محمد الصالح الجابري، المرجع السابق، ص. 121.

31- التجاني العقون، المرجع السابق، ص. 282.

32- اختلف الرواة في سنة هجرة الشيخ نحو الحجاز، يذهب التليلي وسعد الله، بأنه غادر قمار متوجها إلى الحجاز في سنة 1937م، بينما يرجح آخر أن هجرته كانت في سنة 1935م. الطاهر التليلي، **من تاريخ وادي سوف**، ص. 86؛ سمير سمراد، المرجع السابق، ص. 64.

33- المرجع نفسه، ص ص. 64-65.

34- الطاهر التليلي، **من تاريخ وادي سوف**، ص. 86.

35- هو، الحبيب بن عثمان المدني، ولد خلال سنة 1927م ببلدة قمار حيث ترعرع ونشأ في صغره بها، وحفظ القرآن بالبلدة وعمره لم يتجاوز 8 سنوات. ثم التحق بوالده إلى مدينة تونس حيث يبدو أن إقامة عائلته قد طالت هناك، فتردد على كتاتيها ودخل مدرسة الزاوية البكرية؛ والتي تزود منها بكثير العلوم، والتقى بشيوخ وعلماء الزيتونة وأخذ عنهم، وتتلمذ وتربى على أحد أقطاب المذهب المالكي بالجامع الأعظم الزيتوني الشيخ محمد المدني. وعند اندلاع الثورة التحريرية الجزائرية المظفرة لبى نداء الواجب وانخرط في صفوفها كمدني على يد الشهيد السعيد عبد الحي. وعند استرجاع السيادة الوطنية رجع مترجمنا إلى الوادي، حيث عمل في المحكمة بالإضافة إلى التدريس في مساجدها إلى أن وافته المنية في 1995/06/01م الموافق لـ 2 محرم 1416هـ، ودفن في مسقط رأسه قمار، أسكنه الله فسيح جنانه. ينظر: التجاني العقون، المرجع السابق، ص ص. 90-91.

36- الحبيب حنيش بن عثمان، **رحلة الحبيب حنيش إلى الحج سنة 1955م**، مخ. بحوزة نجله كنانة حنيش، الوادي، لدينا نسخة منه، ص. 49.

37- سورة القصص، الآية 64.

38- محمد سعيد دفتر دار، المرجع السابق، ص. 11؛ سعد العمامرة وأحمد منصوري، **أعلام من سوف**، مطبعة مزوار، الوادي 2006م، ص. 61. يذكر صاحب كتاب "أعلام من أرض النبوة"، والباحث التجاني العقون، قيدا آخر لتاريخ وفاته، وهو: 3 جمادى الثانية 1389هـ الموافق 1969/8/16م. سمير سمراد، المرجع السابق، ص. 69. التجاني العقون، المرجع السابق، ص. 284.